كشف المحجوب لأبي الحسن علي بن عثمان الهجويري
من أواخر القرن الرابع الهجري إلى حوالي 465 هـ
(مقاربة معرفية)

د. احميده عميراوي

نائب مدير جامعة الأمير عبد القادر

ملخص

الهدف من تناول هذا الموضوع هو التعريف بأحد المتصوفين الذي توفي عام 465 هـ في الهند وهو الهجويري وبكتابه كشف المحجوب ذي القيمة الروحية والفكرية والتاريخية

Cet essai reflet les tracés d'une personnalité imprégnée du soufisme qui est EL-HOJIOUIRI. Je l'ai décrit du coté de sa naissance, de sa vie spirituelle et religieuse et de son ideologie du soufisme tracé dans son ouvrage «kechf el-mahjoub ». J'ai essayé d'attirer l'attention sur l'importance scientifique et historique de ce livre.

مُقَدِّمَة

يُعدُّ الفكر الإسلامي في بعده الروحي-الصوفي أحد مضامين الحضارة العربية-الإسلامية والحضارة الإنسانية معا. إذ أسهمت شخصيات كثيرة في هذا اللون الفكري أمثال إبراهيم بن أدهم وأبو داوود الطائي ورابعة العدوية والقشيري والجنيد والهُجويري. هذا الأخير الذي لم يرد اسمه بشكل دائم وموسع في كثير المعاجم. على الرغم من المكانة الكبيرة التي يحتلها في هذا العمق الفكري الروحي. ولنا أن نقول إن دراسة مثل هذه الموضوعات ليس من السهولة بمكان. ونقول أيضا إن الهدف من تناوله هو مقاربةُ فهمٍ منا. وعلى أساسه نحاول التعريف بشخصية الهُجويري وبكتابه كشف المحجوب من خلال النقاط الآتية:

1 – عصر الهجويري

2 – الهُجويري مولدا ونشأة

3 – الهُجويري والتصوف

4 – مفهوم التاريخ في الفكر الروحي

5 – آثار الهُجويري

6 – القيمة التاريخية لكتاب كشف المحجوب

1 – عصر الهُجويري

كان عصر الهجويري عهد الخلافة العباسية مشحونا بالحروب وكثير الأحداث والصراعات السياسية والمذهبية. مثلما كان ثريا بالإبداع الفكري. ففيما يتعلق بالحروب فقد كانت أقواها بين الغزنويين والسلاجقة. وجذور هذا الصراع تبدأ بقوة حين ولّى الخليفة المأمون إسماعيل بن أحمد (279–295هـ) الحكم على بلاد ما وراء النهر. وهو من أسرة فارسية تخلى عن الزرادشتية واعتنق الإسلام. وحلت الدولة الغزنوية محل الدولة السمانية على يد الأمير التركي البتكيني عام 351هـ. وتمكن السلاجقة من هزيمة الغزنويين في إيران عام 435هـ/1043م وإبعادهم إلى الهند[1].

أما عن الصراع السياسي والمذهبي فإنه لا يمكن الحديث عن الدولة الغزنوية بمعزل عما كان يجري في البلاد الإسلامية عهد الدولة العباسية (132هـ 749م/ 656هـ/ 1258م) من صراع مذهبي وسياسي خاصة بين السنة والشيعة. وبين الفرق السنية نفسها. وكذلك بين الفرق الشيعية نفسها.إذ كان الغزنويون على المذهب السني. ونتج عن هذا الصراع المذهبي صراع فكري ولّد بدوره صراعا سياسيا موسعا إذ نكّل السلطان محمود الغزنوي الحاكم في إيران بالمعارضين للمذهب السني والقائلين بالعقل قبل النقل أمثال المعتزلة والفلاسفة والإسماعيليين والقرامطة ومن والاهم.

وفي تقديرنا إن الصراع السياسي هذا وكذلك المذهبي الديني والطرح الفلسفي العقلي كان أحد العوامل الأساسية في ظهور التصوف بقوة؛ ومن ثمّ في ظهور شيوخ طرقيين متصوفين أمثال

الهجويري الذين مالوا إلى الروح كصفاء وفضلوها عن العقل والقلب. لأن الأمر -حسب قناعة المتصوفين- يعني في ممارسة أشكال الصراع السياسي والمذهبي والفلسفي أن يكون العمل بالظاهر في أمور الدنيا والدين في حين يعني الأمرُ في الميل إلى التصوف أن يكون العمل بالباطن في أمور الدين والدنيا.

وكان الإبداع الفكري الشعري الروحي معطاءً بإسهامات فطاحل الشعر الصوفي خاصة في إيران أمثال أبي سعيد بن أبي الخير في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري. وأبي عبد الرحمن السُّلمي (تـ412 هـ)[2] وأبي الحسن الخرقاني (تـ425 هـ) وأبي القاسم الجرجاني (تـ450 هـ). مثلما كان عميقا بالمستجدات الروحية الصوفية. زيادة على هذا كان عصر الهجويري زاخرا بحركة الفنون والصنائع والتجارة وبناء القصور والتفنن في البستنة.

2- الهُجويري مولدا ونشأة

مولده: ولد في مدينة غزنة في أفغنستان التي كانت خلال أواخر القرن الرابع الهجري أشهر ثاني مدينة إسلامية بعد بغداد[3]. وتتبعهما مدينة كل من هُجْوير وجلاب. وإليهما ينسب أبو الحسن علي الذي كان يلقب بالغزنوي وبالهجويري. واستقر في النهاية اسمه على "أبو الحسن علي بن عثمان بن علي الجلابي الهجويري الغزنوي". ولا تعرف بدقة سنة مولده لكن الراجح أنه كان أواخر القرن 4 الهجري. أواخر القرن 10م وتوفي حوالي 465 هـ/حوالي عام 1074م في مدينة لاهور الهندية حيث بنى له السلطان إبراهيم ضريحا خاصا به هو الآن مزار كثير من العامة والخاصة.

نشأته: نشأ الهجويري في أسرة متدينة ومتصوفة. إذ كان والده الشيخ عثمان بن أبي علي من خيرة المتصوفين. وترعرع في محيط فكري روحي وديني بفضل شيوخ كانوا موئل طلاب العلم والمعرفة من كل صوب فتتلمذ الهجويري على بعضهم أمثال أبي العباس الشقاني وأبي الفضل

الختلي وأبي القاسم الجرجاني. مثلما تأثر الهجويري بمن قبلهم أمثال الحلاج وأبي عبد الله محمد بن علي الترمذي المتكلم السني والفقيه الحنفي الملقب بحكيم الأولياء والمتوفى عام 285 هـ.

ونشأ خلال ظروف سياسية متقلبة؛ إذ وقع في الأسر فساعدته المحن على أن يمعن في التوحيد أكثر ويمتع نظر القلب والروح بالتأمل ويقبل على التأليف خاصة في كتابه كشف المحجوب[4]. يعني هذا أن الهجويري عاش فترة الصراع الدامي بين قوتين كبيرتين آنذاك هما قوة الغزنويين وقوة السلاجقة. مثلما عاش فترة الحركة الفكرية التي عرفتها البلاد الإسلامية. إذ أن الحروب لم تله الحكام على بناء القصور واقتناء أمهات الكتب. فقد كانت القصور تعج بالكتب المخطوطة مثلما هو الأمر في قصر الصاحب بن عباد المنسوب إلي البويهيين في أصفهان[5]. وقصر السامانيين في بخارى. وقصر قابوس بن وشمكير في طبرستان. فظهر علماء كبار وشعراء فطاحل ومنهم البيروني[6]. وفي هذه القصور وغيرها كانت الحركة الأدبية والعلمية والفكرية نشطة بشكل كبير ساعدت الهجويري على امتلاك معارف كثيرة أضافها إلى رصيده. ونشأ في أسفار إلى بلاد كثيرة؛ كانت إلى العراق والشام وفارس وخرسان وأواسط آسيا وانتهى به المطاف إلى الهند في منتصف القرن الرابع الهجري حيث عمل على نشر الإسلام وتعليم مبادئه فالتف به كثير من المسلمين وحتى من غير المسلمين. ولقي من الدعم الشعبي والرسمي خاصة من حكام غزنة ما ساعده على أن يكون من كبار الدعاة للشريعة الإسلامية.

3- الهجويري والتصوف

أساس ذات الإنسان الروح والقلب والعقل وحول هذه الأمور الثلاثة تدور كل التيارات الفكرية التي تناولت الإنسان وعلاقاته بالواقع وبالغيب. لأن إدراك الأشياء عند بعض المدارس يتم بالعقل فقط بينما عند البعض الآخر يتم بواسطة القلب في حين أن الأمر يتم عند البعض الآخر بالروح. والسؤال المطروح هو مَن مِن هذه الأمور الثلاثة الأقرب إلى التصوف؟

من المواضيع التي اختلف فيها الدارسون بما فيهم المستشرقون أصل التصوف، فمنهم من أرجعه إلى أصل هندي، ومنهم من رده إلى الرهبنة المسيحية، ومنهم من قال بأنه رد فعل للعقلية الآرية ضد الدين الإسلامي وحضارته في فارس. ومنهم من عدّه امتدادا للفلسفة اليونانية. وآخرون قالوا بأنه نابع من البيئة العربية الإسلامية. وقد يكون التصوف مشتقا من الكلمة اليونانية (Theosophie) التي تعني إله الحكمة ودخلت إلى اللغة العربية حين ترجمت الكتب اليونانية في العهد العباسي. لكن التصوف بدأ كممارسة قبل ظهوره كمصطلح؛ وهو أمر طبيعي يتماشى وقواعد النفس الطبيعية. في حين يقول المتصوفة أنفسهم: أن التصوف مؤسس على الكتاب والسنة وقائم على سلوك الأنبياء والأصفياء[7]. يعني هذا أن التصوف هو حقيقة الشريعة الإسلامية.

ومهما يكن من أمر في حال التصوف فإنه من غير المستبعد أن يكون دخيلا يونانيا وفارسيا وهنديا ومسيحيا الذي وجد في البلاد الإسلامية وفي أذهان المسلمين الأرض الخصبة فاستمر إلى أن صار أحد المضامين الكبرى كحياة روحية في الحضارة الإسلامية. الأمر الذي يجعلنا نميل إلى قناعة وهي أن التصوف حياة روحية تتعايش وقواعد النفس الطبيعية عبر العصور بغض النظر عن مواطن الأجناس وفترات وجودهم.

ودراسة التصوف ليس من الأمر السهل لأنه يتطلب توظيف مفاهيم محددة كالروح والباطن والكشف والمحجوب والوجد والوجود والتجلي والحلول والفناء واللهوت والناسوت والفيض والولاية والقطب والغوث والطريقة والصفاء والصُّفة والتصوف والمجاهدة والحقيقة والخطرات واللمع والسبحة والخرقة والورد والمريد إلى آخره. وإدراك هذه المفاهيم يكون بالروح وفي الروح؛ لأن عند المتصوفة إدراك الحقيقة الإلهية إنما يكون بالروح أساسا لأن في القلب وفي العقل تكون الطهارة والطيبة مجتمعتين مثلما يكون الدنس والخبث في حين أن الروح لا يكون فيها إلا الصفاء وأن الله عز وجلّ لا يكون إلا في الصفاء والطهر.

وممارسات التصوف الأولى في البلاد الإسلامية بدأت مع إبراهيم بن أدهم 162 هـ وأبو داوود الطائي 165 هـ ورابعة العدوية 185 هـ وغيرهم. بدأ كتصوف زهدي ثم تطور ليغوص في الروحانيات بدءا بالقرن الثالث الهجري وعن طريق ذي النون المصري 245 هـ واضع أسس علم التصوف التي طورها بعده الجنيد البغدادي 297هـ وتعدّ أعماله الفتيل الذي أشعل النار أكثر بين المتصوفة والفقهاء السنيين وأدت إلى مصرع الحلاج عام 309هـ. واستمر التصوف في توسع بظهور أقطاب أمثال عبد القادر الجيلالي 562 هـ /1167م وانتشر في بلاد المغرب العربي عن طريق شيوخ رحمهم الله ومنهم أبو مدين شعيب 593 هـ. مثلما استمر في صراع ضد الفقهاء السنيين والشيعيين لأن السنيين يقولون بالخلافة والشيعة تقول بالإمامة والمتصوفة يقولون بالولاية والقطب

وتكاد تتفق معظم الآراء حول التصوف على أنه: نزعة روحية تنأى بالإنسان عن العالم المادي وترتفع به إلى العالم الروحي. وهو بهذا المعنى يكون ظاهرة إنسانية تنشأ في البيئة الدينية الروحية الغيبية. وبذلك يكون التصوف فكرا باطنيا وتراثا روحيا عالميا تشترك فيه المعتقدات القديمة مثل معتقدات الصينيين التاوية[8] والكونفوشيوسية (551–479 ق.م). ومعتقدات الهنود البوذيين والفرس والهنود الزرادشتين (حوالي 1000 سنة ق.م). ويكون التصوف الإسلامي جزءا من هذا التراث الإنساني العالمي. ومن ثمّ جزءا من التصوف العالمي.

وليس الاختلاف قائما حول مرجعية التصوف فقط وإنما الاختلاف وارد أيضا حول الدلالة اللغوية، إذ قالت جماعة أن الصوفي هو الذي يلبس الصوف. وقالت أخرى أن اسم الصوفية يعني في الصف الأول. وقال آخرون: سموا كذلك لأنهم أهل الصفة وقال البعض أن الاسم مشتق من الصفاء. ومن ثمّ فالصفاء أصل وفرع. فالأصل هو انقطاع القلب عن الأغيار. (من لا تنكسر قلوبهم ولا تتغير) والفرع هو خلو اليد من الدنيا الغادرة؛ وعلى هاتين الصفتين تأسست الطريقة. وكانت هاتان الصفتان من خصال أبي بكر الصديق ﷺ وعليه فهو يعدّ عند البعض إمام هذه الطريقة[9].

ومن جانب آخر يطلق لفظ الصوفي على كامل الولاية[10]. وعلى هذا الأساس يمكن تحديد أهل هذه الطريقة في أربع درجات: الصافي والصوفي والمتصوف والمستصوف. ولهذا حقّ للهجويري حين قال: " فالمستصوف عند الصوفية كالذباب، وعند غيرهم كالذئاب" نتيجةً لابتعاده عن التصوف. ومن ثم "فالصوفي هو صاحب الوصول. والمتصوف هو صاحب الأصول والمستصوف هو صاحب الفضول"[11]. لأن الصوفي لا يملك ولا يُملك ولا يكون تحت حكم أو ملك فهو يقطع سلطان إرادته عن الغير[12].

وبهذا العمق يمكن الوصول إلى نتيجة هامة وهي أن الثقافة الطرقية هذه قد تمكنت بما لها من إلهام روحي وولاء شعبي من أن تحافظ على المقومات الإسلامية. وتنشر التعاليم الإسلامية في معظم البلاد الآسيوية.

ولكنه من جهة أخرى ونتيجة للظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية حدث أن التفَّ الناس بالطرقيين أكثر وبالعلماء بشكل أقلّ، وأدّى ذلك إلى نتائج خطيرة منها: غلق باب الاجتهاد وتبسيط المعارف. وصار التصوف الخطاب الأقوى للثقافة العربية الإسلامية سواء في الهند أم في غيرها من البلاد العربية–الإسلامية. واستمر الحال على هذا المنوال فعمّ البلاد العربية والإسلامية إلى فترة متأخرة من التاريخ الحديث خاصة لما توقف الفكر الفلسفي عن العطاء بعد موت ابن رشد(520– 595 هـ /1126–1198م)[13].

بحسب تقديرنا أن الصراع المذهبي الذي ولّد حروبا واضطهادا كان دافعا لتطور الفكر الصوفي، ومن ثمّ كان أرضا خصبة لظهور شيوخ متصوفين أمثال الهجويري الذين التزموا بقناعة الإيمان في أن الدين الحق هو حبّ الله. وحب الله الحق يجب ألاّ يكون في القلب ولا في العقل فقط لأنهما جامعان للصفاء والدنس في نفس الوقت إنما يجب يكون في الروح التي لا يكون فيها إلاّ الصفاء والطهارة فهي الموئل الأساس قبل العقل والقلب[14]. وبدراسة أفكار الهجويري يتبين عمقه

في هذا اللون الفكري الصوفي خاصة في كتابه كشف المحجوب (مثلما سنبينه في حينه) زيادة على ما قيل عنه أنه صاحب كرامات[15].

ويمكن إضافة عامل لا يقل أهمية عن بقية العوامل التي أدت إلى انتشار "التصوف" وهو عامل تاريخي تمتد جذوره إلى بلاد الشرق فيما عرفته بلاد فارس والهند والمشرق من فكر صوفي؛ إذ يشهد لذي النون المصري عام 245هـ الدور الهام في إثراء وتعميق هذا البعد الروحي. وكذلك من العوامل التي أدت إلى انتشار التصوف هو اليأس والفقر والخوف الذي أصاب عامة الناس من جراء الحروب والاضطهاد في هذه المرحلة. وهو ما يفسر وجود شعوذة وخرافة منتشرة التي كان قام بها غير المتصوفين الحقيقيين. فكان "التصوف" عندهم اسما لا ممارسة. ولا يعني هذا أن التصوف كان ملجأ للناس أكثر مما كان عندهم قناعة وإيمانا بل إن الواقع يؤكد أن أهم المناطق كخرسان والهند كانت موطن كبار المتصوفين أمثال أبي القاسم القشيري النيسبوري وحجة الإسلام الإمام الغزالي. ولعل من أهم الكتب التي ألفت في التصوف خلال هذه المرحلة هي الرسالة لأبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري وكتاب كشف المحجوب لأبي الحسن علي بن عثمان الهجويري.

وعند الهجويري لا حقيقة من دون شريعة ولا شريعة من دون حقيقة. ويكون الهجويري حسب المتعارف عليه على صواب.

فتكون الشريعة هي صحة حال الظاهر والحقيقة هي الوصول إلى حقيقة الباطن. والحق هو الله سبحانه وتعالى بناء على قوله عزّ وجل: "ذلك بأن الله هو الحق وانه يحي الموتى وانه على كل شيء قدير"[16]. والاثنان متلازمان. إذ لا شريعة من دون حقيقة ولا حقيقة من دون شريعة.

يقول القشيري في رسالته: "الشريعة أمر بالتزام العبودية والحقيقة مشاهدة الربوبية". " فكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فغير معقول وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فغير محصول". وقال غيره " الشريعة لإصلاح الظواهر والطريقة لإصلاح الضمائر والحقيقة لإصلاح السرائر".

وقال أبو حامد الغزالي: "قال بعض الحكماء، سلامة الجسد في قلة الطعـام وسلامة الـروح في قلة الآثام وسلامة الدين في الصلاة على خير الأنام"[17]

ونرى أن الصدق فيما ورد من المتصوفين الحقيقيين من قول: "مـن اكتفـى بـالكلام من العلم دون الزهد والفقه تزندق ومن اكتفى بالزهد دون الفقه والكلام تبدع ومن اكتفى بالفقـه دون الزهد والكلام تفسق ومن تفنن في هذه الأمور كلها تخلص". أي أن المتصوف الحقيقـي هـو الـذي جمع في وقت واحد بين العلم والفقه والزهد.

وبرأينا أن للصراع الذي كـان بـين المتصوفـة والفقـهاء دورا فـاعلا في تطـور التصـوف إذ أنـه بظهور المتصوفة مناهضين للفقهاء كان الدافع القوي للفقهاء كي يبحثوا ويتعمقوا في الدين إذ بعـد أن كانوا يأخذون بظاهر الدين وبالمسلمات صاروا يبحثون في علل الأحكام مفرقين بين ما هو عبـادة وبين ما هو اعتقاد وبين ما هو رواية. فانشطر الفكر الديني الإسلامي إلى فكر ظاهري نصـي نقلـي سلفي تزعمته فئة الفقهاء كالإمامية بداية من القرن الثـالث الهجـري والحشـوية والمعتزلـة. وإلى فكر باطني روحاني وجداني غيبي كان عناية المتصوفة أمثال غلام الخليل والجنيد والنـوري وأبـو سعيد الخراز. ولعل هذا الصراع الحاد بين الفئتين هو الذي دفع المتصوفة إلى الاعتصام بكتـاب الله عز وجل بالبحث عن الآيات الباطنية والاستدلال بها للدفاع عـن مبادئـهم وعـن أنفسـهم ولإقنـاع الناس بصدق دعوتهم.

وكيفما كان الحال فقد كان هذا الصراع دافعا للتأليف وهو ما نلمسه في الإنتاج الكبير المتمثل في أمهات الكتب في علم التصوف. ومن غير المستبعد أن يكون كتاب كشف المحجوب للـهجويري قد جاء في هذا السياق لأنه اهتم بتاريخ المتصوفين بـأن رصـد لنـا قائمـة طويلـة لكثـير مـن شيوخ الطرق الصوفية. فهو ضمن التراث الإسلامي الذي يؤصل هذه الفترة. وعلى الرغم أن لكـل منـهما -الفقهاء والمتصوفة- وجهة نظر تخالف في كثير من الأحيان وجهة نظر الآخـر فإنـهما متكاملتـان

ومكملتان للشريعة الدينية الإسلامية. وكان سببا من جهة أخرى في وجود مخزون فكري روحي له مكانته في الحضارة الإسلامية.

ونقول بالتكامل بين فكر الفقهاء والمتصوفة كون -على رأي ابن خلدون- "وصار علم الشريعة صنفين صنف مخصوص بالفقهاء وأهل الفتيا وهي الأحكام العامة في العبادات والعادات والمعاملات وصنف مخصوص بالقوم (المتصوفين) في القيام بهذه المجاهدة ومحاسبة النفس عليها ...فلما كتبت العلوم ودونت وألف الفقهاء في الفقه وأصوله والكلام والتفسير وغير ذلك كتب رجال من أهل هذه الطريقة في طريقهم فمنهم من كتب في الورع ومحاسبة النفس على الاقتداء في الأخذ والترك كما فعله القشيري في كتاب الرسالة والسهروردي في كتاب عوارف المعارف وأمثالهم وجمع الغزالي رحمه الله بين الأمرين في كتاب الأحياء فدون فيه أحكام الورع والاقتداء ثم بين آداب القوم وسننهم وشرح اصطلاحاتهم في عباراتهم وصار علم التصوف في الملة علما مدونا"[18]

يرد مصطلح "الكشف" و"الحجاب" عند المتصوفة كثيرا ومثلما قال ابن خلدون فالكشف هو"الحس والاطلاع على عوالم من أمر الله ليس لصاحب الحس إدراك شيء منها. والروح من تلك العوالم وسبب هذا الكشف أن الروح إذا رجع عن الحس الظاهر إلى الباطن ضعف أحوال الحس وقويت أحوال الروح وغلب سلطانه وتجدد نشؤه وأعان على ذلك الذكر فإنه كالغذاء لتنمية الروح ولا يزال في نمو وتزيد إلى أن يصير شهودا بعد أن كان علما ويكشف حجاب الحس ويتم وجود النفس الذي لها من ذاتها وهو عين الإدراك فيتعرض حينئذ للمواهب الربانية والعلوم المدنية والفتح الإلهي وتقرب ذاته في تحقيق حقيقتها من الأفق الأعلى أفق الملائكة وهذا الكشف كثيرا ما يعرض لأهل المجاهدة"[19]. يقول الأمير عبد القادر في آخر موقف رقم 358 "وأما أهل الكشف فإنهم يرون أن الله يتجلى في كل نفس ولا يتكرر التجلي ويرون أيضا شهودا ان كل تجلي يعطي خلقا ويذهب بخلق فذهابه هو الفناء عند التجلي والبقاء لما يعطيه التجلي الآخر"[20]

4- مفهوم التاريخ في الفكر الروحي

مفهوم التاريخ عند أهل الغيب ليس هو نفسه عند كل المدارس الحديثة. إذ أن الدراسات الحديثة تجنح إلى تحديد مفهوم التاريخ على أنه الحدث البشري الزمكاني الذي وقع في الماضي. في حين أن مفهوم التاريخ لدى الروحيين ليس من صنع البشر فقط بل أيضا للطبيعة والآلهة والأرواح فعل في تشكيله؛ لأن الأمر عند الغيبيين مسلمات بوجود غير البشر في تسيير هذا الكون. ومن هنا كان الحكم على العظماء في التاريخ بأنهم منحدرون من الآلهة وبقوة من الله. ويكون للأساطير دور في تجسيد الآلهة في نفوس البشر لهذا كان الاهتمام بالتاريخ كبيرا لأنه يمجد هؤلاء العظماء. ولعل اهتمام الهجويري بالتاريخ حين مجد كبار الشيوخ صانعي الحدث في الماضي وحضورهم عن طريق التجلي يدخل ضمن هذا السياق. وأن الشيخ القطب هو المركز. في حين أن رجال الدين وشيوخ الدين ذهبوا إلى منحى آخر. ولهذا لا نستغرب من الهجويري لما قدم في كتابه كشف المحجوب معلومات تاريخية عن متصوفة واعتبرهم صانعي الحدث.

5 – آثار الهجويري

للهجويري كتب كثيرة وإن كان اشتهر بكتاب كشف المحجوب. مثلما له كتاب كشف الأسرار وكتاب ثواقب الأخبار وكذلك منهاج الدين وأيضا في شرح كلام الحلاج والديوان وفيه أشعار كثيرة هي من نضمه. وغيرها من المؤلفات الكثيرة[21].

ويعد كتاب كشف المحجوب آخر مؤلفات الهجويري وأقدم مؤلف في كتب التصوف بالفارسية يكون انتهى من تأليفه في نهاية النصف الأول من القرن الخامس الهجري. ويذكر أن الاسم الكامل للكتاب هو كشف حجب المحجوب لأرباب القلوب.

وموضوع الكتاب هو العلم وهو قسمان علم الله وعلم الخلق والتصوف ويضم حسب بعض الدراسات 25 قسما. ويعد من الكتب النادرة في التصوف بجانب كتاب كل من اللمع لأبي نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي المتوفى عام 378 هجرية. وكتاب طبقات الصوفية الذي ألفه في أواخر

القرن الرابع الهجري أبو عبد الرحمن السلمي المتوفي عام 412 هجرية. والرسالة التي ألفها في القرن الخامس أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري المتوفي عام 465 هجرية

محتوى كتاب كشف المحجوب

للكتاب قيمة علمية كبيرة، لهذا ترجمه إلى لغات كثيرة مستشرقون كانوا من روسيا ومن أوروبا إلى لغات ومنها الأنجليزية. ويوجد في أكثر من نسخة مخطوط في دور أرشيفات ببلدان متعددة. فهو تأصيل لعلم التصوف مثلما هو ترجمة لمعظم الشيوخ الأصفياء الذين أحبهم الهجويري. ويحتوي الكتاب على مواضيع فكرية روحية صوفية[22] موزعة على 25 قسما هي باختصار:

إثبات العلم، الفقر، التصوف، لبس المرقعة، الاختلاف في الفقر والصفوة، بيان الملامة، أهل الصفة، الأئمة من الصحابة والتابعين، الأئمة من أهل البيت، الأئمة من التابعين والأنصار، الأئمة من أتباع التابعين، الأئمة من المتأخرين، الفرق وآياتهم، رجال الصوفية المتأخرين، كشف الحجاب في: 1- معرفة الله تعالى، 2- التوحيد، 3- الإيمان، 4- الطهارة، 5- الصلاة، 6- الزكاة، 7- الصوم، 8- الحج، 9- الصحبة، 10- بيان منطق الصحبة وألفاظهم، 11- السماع.

من خلال القراءة لهذه الأقسام يتبين عمق وصدق الهجويري في الطرح حيث كان يستعرض القضايا ويحللها ويحدد موقفه منها بتقديم البديل المقنع. فهو في الحديث عن التصوف رفض الاشتقاقات من الصوفي وهي الصوف أم الصفاء أم الصف أم من الصفة وأرجع الاشتقاق إلى اسم من الأعلام. ثم قسم التصوف إلى صوفي ومتصوف ومستصوف مثلما سبق ذكره.

وقسم الأئمة بالتدرج والتسلسل الزمني إذ بعد الأئمة الأربعة جاء الحسن بن علي والحسين بن علي وعلي بن الحسين وأبو جعفر محمد بن علي بن الحسين وأبو محمد جعفر بن علي بن الحسين إلى آخره من الأئمة التابعين والمتأخرين.

أرخ لنا الهجويري لبعض الفرق الصوفية التي عددها إلى اثنتي عشرة فرقة ومنها المحاسبية والقصارية (الملامتية) والطيفورية والحكيمية. مثلما أنسب بعض المدلولات والمفاهيم إلى مصدرها وقدم معانيها. مثل مفهوم التصوف والعلم والفقر والملامة أو الملامتية وكشف الحجب: في معرفة الله وفي التوحيد وفي الإيمان وفي الطهارة وفي الصلاة وفي الزكاة وفي الصوم وفي الحج وفي آداب الصحبة وألفاظ النطق وفي السماع. ومما نقله على لسان كثير من الشيوخ في باب العلم ومنهم أبو عبد الله بن محمد بن الفضل بن العباس البلخي (ت 319هـ) الذي قال: "العلوم ثلاثة علم من الله (هو علم الشريعة) وعلم مع الله (طريق الحق ودرجات الأولياء) وعلم بالله (هو علم المعرفة)".

ومن المدلولات اللفظية الأساسية في خطاب المتصوفة: الحق ـ الشريعة ـ الحقيقة ـ الخطرات ـ الطمس ـ الزوائد ـ الوسائط ـ المنجى ـ اللوامع ـ الطوالع ـ السر ـ النجوى.

ومن خلال هذا العرض والتحليل يتبين أن مصادر فكر الهجويري الواردة في كتاب كشف المحجوب تعود إلى معارفه الواسعة التي جمعها من أسفاره الكثيرة. ومن شيوخه أي من الرواية. ومن المخطوطات التي ألفها معاصروه وممن سبقوه مثل كتاب اللمع لأبي نصر السراج الطوسي والرسالة للقشيري. وكتب أبي عبد الرحمن السلمي المتوفي عام 412هـ ومنها كتاب تاريخ أهل الصفة وكتاب طبقات الصوفية. مثلما اعتمد على كتب أخرى لمجموعة من المؤلفين أمثال كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف وهو ترجمة إلى الفارسية لمستملي البخاري المتوفى عام 434 هـ من الكتاب العربي الذي ألفه الكلاباذي المتوفى عام 380 هـ.

علما وأن مدرستين كانتا مشهورتين خلال القرن الثالث وهما:

مدرسة أبي القاسم الجنيد المتوفى عام 207هـ ببغداد. ومدرسة أبي نصر السراج المتوفى عام 378 هـ في نيسابور. ومن غير المستبعد أن يكون لهما الأثر في تكوين الهجويري.

ويعد كتاب كشف المحجوب من أمهات الكتب في التصوف التي كتبت باللغة الفارسية إن لم يكن هو الكتاب الأول الذي ألف بهذه اللغة إذا استثنينا الترجمة التي قام بها المستملي البخاري بعنوان التعرف لمذهب أهل التصوف من الكتاب العربي الذي ألفه الكلاباذي مثلما سبق ذكره.

6- القيمة التاريخية لكتاب الهجويري

لكتاب كشف المحجوب فوائد كثيرة معرفية وتاريخية واصطلاحية ولغوية وروحية إذ تضمن معاني كثيرة هامة يتميز مفهومها عند المتصوفة عما هو عند الفلاسفة أو الوصوليين من ذلك مثلا معنى العالم فالفلاسفة يقولون بوجود عالمين سفلي وعلوي وعلماء الأصول يقولون إن العالم هو كل شيء يوحد بين العرش والثرى. بينما المتصوفة يقولون بوجود الآلاف من هذا العالم فهناك عالم الأرواح وعالم النفوس. ويتبين من هذا الكتاب العمق الروحي والبعد الوجداني على عادة الشيوخ المتصوفين عن حقيقة وإيمانا. بجانب الدقة في تحديد مدلول الكلمات من هذا نذكر كلمة "الولاية" التي قال عنها الهجويري: أن أساس طريقة التصوف والمعرفة يقوم على الولاية وإثباتها، فالولاية تعني في اللغة النصرة. والولاية تعني الإمارة. وتعني الولاية من الناحية غير اللغوية الربوبية إذ جاء في قوله تعالى وتبارك: "هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا"[23]. "إن ولي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين"[24]

من القراءة لكشف المحجوب يتبين أن الهجويري كان يتأسف على ما أصاب التصوف من ضعف. إذن الذي دفع الهجويري إلى الكتابة هو الوضع العام السائد من فكر وعلم وأدب. لأن هذا الوضع ناتج عن ميل عامة المفكرين إلى اعتماد العلوم العقلية أكثر من الروحية. وعن صراعات سياسية ومذهبية وعن فقر واضطهاد. وناتج أيضا عن ميل فيئات من العامة إلى العلوم النقلية أكثر من العلوم العقلية والروحية. وناتج أيضا عن انحدار التصوف إلى الخرافة والشعوذة.

ومن غير المستبعد أن يكون لكتاب كشف المحجوب وللرسالة القشيرية ولغيرهما أثر فاعل في ما أنجزه أبو حامد الغزالي من علوم في أواخر القرن الخامس الهجري (إحياء علوم الدين) الذي يعد أحد المثمنات في التصوف السني.

وقيمة كتاب كشف المحجوب هامة خاصة فيما أثرت به في الكتب الفارسية مثل كتاب أسرار التوحيد وتذكرة الأولياء وهي كتب في التصوف.

مما سبق يتبين لنا أن الفكر الروحي الصوفي يعد أحد المضامين الأساسية في الحضارة العربية الإسلامية والإنسانية بفضل إسهامات شخصيات فكرية روحية أمثال أبو الحسن علي بن عثمان الهجويري المتوفى حوالي عام 465هـ. حيث عاش عصرا عرف بازدهار علمي ناتج عن جهود رجال الدولة العباسية وحروب سياسية بين الغزنويين والسلاجقة وصراعات مذهبية بين السنيين والشيعة وبيئة دينية وروحية صوفية تمتد جذورها إلى الحضارات القديمة وفلسفية كانت أصولها الحضارات القديمة والإغريقية.

لهذا كان الهجويري وليد هذا الزخم الحضاري الفكري الروحي الذي أسهم فيه بكتابة مؤلفات قيمة اعتبرنا كتابه كشف المحجوب أحد الأعمال القيمة نظرا لما جاء فيه من تراجم ومن مفاهيم ومن مواضيع مثل تقسيمه للدرجات المتصوفين الذين إلى صوفيين ومتصوفين ومستصوفين. ومن هذا وغيره يتبين أن ما جاء في هذا الكتاب لا يقل أهميه عما جاء في كتاب اللمع لأبي نصر السراج الطوسي وعما جاء في الرسالة القشيرية ومثلهما.

الهوامش

[1]- للمزيد من المعلومات يراجع: حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام. ج. 3. دار الجيل. مصر 1996. ص-ص.80-112

[2]- ينظر: أبو عبد الرحمن السُّلمي. طبقات الصوفية. تحقيق نور الدين شريبة. مكتبة الخانجي. القاهرة 1969

[3]- شمس الدين أحمد ابن خلكان. وفيات الأعيان. ج. 2. القاهرة 1310هـ. ص. 85

[4]- للمزيد من المعلومات يراجع: كشف المحجوب. ترجمة وتعليق إسعاد عبد الهادي قنديل. ج. 1، 2.دار النهضة العربية. بيروت 1980. ص. 19

[5]- تأسست في فارس على يد ابن بويه عام 320 هـ وانتهت عام 414 هـ. ينظر حسن إبراهيم حسن. المرجع السابق. ص-ص.110- 120

[6]- هو أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني من أصل فارسي ولد عام 362 هـ/ 973م وتوفي عام 421 هـ/ 1030م ومن علماء مدينة غزنة. له مؤلفات كثيرة منها مراسلاته مع ابن سينا. ومن كتبه: الآثار الباقية من القرون الخالية الذي يمكن تصنيفه ضمن كتب فلسفة التاريخ. كتاب تاريخ الهند. وغيرها. للمزيد يراجع: جورج طرابيشي. معجم الفلاسفة. دار الطليعة. ط. 1. بيروت 1987. ص. 199

[7]- كشف المحجوب للهجويري. ترجمة وتعليق إسعاد عبد الهادي قنديل. ج. 1، 2.دار النهضة العربية. بيروت 1980. 708ص

[8]- وهي (TAO) التي تعني النهج والشامل أي البشر والطبيعة والآلهة والأرواح. للمزيد من المعلومات يراجع: آلبان. ج. ويدجري. التاريخ وكيف يفسرونه من كنفوشيوس إلى توينبي. ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد. الهيئة المصرية العامة للكتاب. مصر 1972. ص. 11

[9]- ينظر ما كتبناه بعنوان: محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث. مطبوعات جامعة منتوري- قسنطينة. 1999. ص. 29 وما بعدها.

[10] – طريقة التصوف تقوم على الولاية. والولاية (بفتح الواو) تعني النصرة. أي أمور الدين. (وبكسرها) تعني الإمارة، أي أمور الدنيا. وهما مصدر "ولي" وهي خصوص الولاية من الله للعبد. فالمؤمن ولي الله.

[11] – كشف المحجوب للهجويري. المرجع نفسه. ص. 231

[12] – يراجع: كشف المحجوب. ص. 233.

[13] – لمزيد من المعلومات يراجع: أعمال مؤتمر ابن رشد، الذي انعقد في الجزائر في تاريخ 3–8 ذو الحجة 1393ه/ 4–9 نوفمبر 1976، ج. 1، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وزارة الثقافة، الجزائر 1985

[14] – كان كثير من الغربيين يقولون بأن إدراك كثير من الأمور لا يكون إلا بالروح مثلما ذهب إلى ذلك برغسون هنري لوزيس (1859–1941)

[15] – الهجويري. ص. 81

[16] – سورة الحج آية 6

[17] – يراجع: أبو حامد الغزالي، مكاشفة القلوب المقرب إلى حضرة علام الغيوب. دار الكتاب العلمية. بيروت 1982، ص.5

[18] – ابن خلدون، المقدمة، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات،بيروت، ص–ص. 469

[19] – للمزيد من المعلومات يراجع: ابن خلدون، المرجع نفسه. ص. 169 وما بعدها

[20] – – الأمير عبد القادر ، المواقف، ج 3، موفم للنشر، الجزائر 1996

[21] – للمزيد من التعرف على محتويات هذه الكتب يراجع: الهجويري. المرجع السابق. ص–ص.98–106

[22] – نعتمد الترجمة من الأنجليزية لدكتورة إسعاد عبد الهادي قنديل، المرجع السابق.

[23] – سورة الكهف آية 46

[24] – سورة الأعراف آية 196